المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلّ له، ومن يُضْلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله حَقّ تُقاته ولا تَموتُنّ إلا وأنتم مُسْلِمونَ﴾، ﴿يا أيّها الناسُ اتّقوا ربّكُم الذي خَلَقَكُم من نَفْسٍ واحِدَةٍ وخلق منها زَوْجها وبَثّ منهُما رجالاً كثيراً ونِساءً واتّقوا اللهَ الذي تَساءَلونَ به والأرحامَ إنّ اللهَ كان عليكُم رقيباً﴾، ﴿يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قَوْلاً سديداً يُصْلِحْ لكم أعمالَكُم ويغفرْ لكُم ذُنوبَكُم ومَن يُطِعِ اللهَ ورسولَهُ فقد فازَ فَوْزاً عظيماً﴾ أما بعد: فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور مُحْدَثاتها، وكل مُحْدَثة بِدعة، وكل بِدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

طرح شكيب أرسلان في مطلع القرن العشرين سؤالاً: لماذا تأخرنا وتقدم غيرنا؟ وهو سؤال جوهري أجاب عليه في رسالة

كتبها، وأجاب غيره عن السؤال نفسه، وبغض النظر عن قيمة الأجوبة، ففي تقديري يجب أن يتغير السؤال بعد مرور ما يقرب من قرن على سؤال شكيب أرسلان ليصبح: لماذا لم ننهض؟ لا شك أن السؤال بهذه الصورة يقرر حقيقة جديدة هي أننا لم ننهض، وهو أمر متفق عليه بين جميع الفئات من إسلامية وقومية وليبرالية إلخ...

وفي محاولتي للإجابة على ذلك السؤال تفحصت دور ايديولوجيا القومية العربية، ودور القيادات القومية العربية في مسيرة الأمة منذ مطلع القرن العشرين، وذلك لأن ايديولوجيا القومية العربية هي التي حكمت معظم الدول العربية، لذلك فإن أي تمحيص لعدم تحقق حلم الأمة في النهضة يجب أن يتفحص دور تلك الايديولوجيا لأنها هي التي نفذت رؤيتها وتصوراتها وأفكارها وتخطيطاتها إلخ...

ومن الجدير بالملاحظة أن القيادات القومية العربية في كل مراحلها، لم تعتبر الدين الإسلامي عاملاً أساسياً في بناء الأمة، وهذا ما جعلها تتوجه إلى تغريب الأمة حسب النموذج

الأوروبي، لكن الأمة رفضت هذا التغريب، وحدثت معركة طاحنة أثناء الرفض، وكلفتها الكثير من الخسائر على المستوى الثقافي والاجتماعي والسياسي إلخ... وانبثقت الصحوة الإسلامية في نهاية تلك المعركة، لكن الصحوة الإسلامية - أيضاً - لم تنقل الأمة نقلة نوعية نتيجة القصور في منهجيتها ورؤيتها.

لقد تغيرت الصورة بعد سقوط الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفييتي عام ١٩٩١م وبروز العولمة، فأصبحت الصحوة الإسلامية مهددة، ليس هذا فحسب بل الأمة مهددة في جوانب من ثوابتها وشخصيتها وهويتها وعوامل وجودها.

قد ناقشت كل ذلك، لذلك قسّمت كتابي إلى أربعة فصول، كانت حسب الترتيب الآتي:

الفصل الأول: ايديولوجيا القومية العربية: الفشل في تحقيق النهضة وظروف النشأة.

عرضت في بداية الفصل كيفية تعميم ايديولوجيا القومية العربية في مختلف الأقطار العربية، ثم فصّلت في فشل ايديولوجيا

القومية العربية في تحقيق أهداف النهضة، ثم تساءلت في فقرة تالية: لماذا انفصل العرب عن الأتراك؟ ثم قارنت بين مفهوم "العروبة" في التراث وعند القوميين العرب وأبرزت كيفية تحويلهم مفهوم "العروبة" إلى ايديولوجيا، وملئه بمضامين جديدة مخالفة لما كان عليها في التراث، ثم تساءلت كيف نظر القوميون العرب إلى العصور المتأخرة من تاريخنا بخاصة عصري المماليك والعثمانيين، وذلك لأن النظرة الخاطئة ستؤدي إلى حلول خاطئة، وبيّنت في هذه الفقرة أنهم اعتبروا هذين العصرين عصري انحطاط وعصري استبداد لأن القيادات فيهما غير عربية، وناقشت قولهما ذلك، وبيّنت خطأ تحقيب تاريخ أمتنا إلى عصور نشأة وترجمة وازدهار وانحطاط، ونقلت مناقشة الدكتور جورج صليبا لتلك المقولة وأدلته على أخطائها، ثم ناقشت مقولتهم في أن تاريخ أمتنا تاريخ استبداد، وبيّنت أن وجود القرآن الكريم كدستور يحدّد الحقوق والواجبات للحاكم يلغي أصلاً من أصول الاستبداد، وبيّنت وجود عدد كبير من الوسائط بين الحاكم والمحكومين في تاريخنا الإسلامي تعطي فسحة من الحرية والأمان للمحكومين.

الفصل الثاني: ايديولوجيا القومية العربية: تحليل المضمون.

شرحت في بداية هذا الفصل النظريات التي تعلّل نشأة القوميات في أوروبا، ثم انتقلت إلى تحليل مضمون ايديولوجيا القومية العربية عند ساطع الحصري، ثم بيّنت آراءه في العلاقة بين الأديان والأمم بشكل عام والدين الإسلامي بشكل خاص، ثم وضحت أن ايديولوجيا القومية العربية التي طرحها ساطع الحصري والتي تقول بأن الأمة تقوم على عاملي اللغة والتاريخ لا تستطيع أن تعلّل لنا كيفية وجود الوحدة الثقافية، والوحدة النفسية، ووحدة العادات والتقاليد، ووحدة العواطف والمشاعر والآلام والآمال، ووحدة الأجناس إلخ...، ثم بيّنت في الفقرة التالية دور القرآن الكريم والسنة المشرفة في بناء الأمة الإسلامية، فوضّحت دورهما في بناء الوحدة الثقافية، ووحدة الأجناس والأعراق والقبائل، ووحدة العواطف والتكوين النفسي المشترك إلخ...

الفصل الثالث: الصحوة الإسلامية: مظاهرها، أسبابها، محدودية فاعليتها.

جاءت الصحوة الإسلامية ردة فعل على محاولة الايديولوجيا القومية تغريب الأمة، فبيّنت في هذا الفصل مظاهر الصحوة الإسلامية، وبيّنت كل ما يقال ويكتب عن أسبابها، ثم رجّحت أنها تعبير عن الوحدة الثقافية في هذه الأمة، ثم وضّحت في الفقرة الأخيرة من هذا الفصل أنها لم تنقل الأمة نقلة نوعية، وحدّدت أسباب ذلك.

الفصل الرابع: الأخطار التي تهدد الصحوة والأمة الإسلاميتين.

بيّنت في هذا الفصل الأخطار التي تهدد الصحوة والأمة الإسلاميتين فكانت ثلاثة أخطار:

الأول: القطرية: وقد مر هذا الخطر بمرحلتين:

الأولى: تقسيم الأمة المسلمة إلى أمتين: أمة عربية وأمة تركية.

الثانية: التأسيس الثقافي لكل قطر على حدة.

الثاني: اسرائيل: بيّنت فيه تطورات قيام اسرائيل، ثم عرضت لمخاطرها على المنطقة.

الثالث: العولمة: شرحت في هذه الفقرة معنى العولمة، وأخطارها، وأبرز هذه الأخطار: نسبية الحقيقة ثم عرضت لمسألة نسبية الحقيقة عند عدد من الكتاب: طه حسين، حسين أحمد أمين، نصر حامد أبو زيد، محمد شحرور، ثم أنهيت هذا الفصل بالجواب على سؤال هو: كيف يمكن أن نوفّق بين نصوص ثابتة ووقائع متغيرة؟

وفي النهاية آمل أن أكون قد وفقت في توضيح العوامل التي أدت إلى عدم نهوضنا، كما آمل أن أكون قد وفقت في تسليط الأضواء على أهم الأخطار التي تتهدد أمتنا في الوقت الحاضر، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.